فى مستشفى الأمراض العقلية

كتاب غريب... أليس كذلك

ولكنه كتاب يستحق أن يقرأه العقلاء بل يقفون عنده طويلا:

كتاب تعمدت أن أقدمه بمناسبة تدهور مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة، لعل هذا الكتاب يصلح فى مصر ما أصلحه فى غيرها.

ألف هذا الكتاب «جون فنسنت» لست أدرى هل أقول نزيل المستشفى أو أقول طليق المستشفى أو عتيق المستشفى.

تحت أى صفة من هذه الصفات، الكتاب يستحق أن يقرأه. قارئ ويتأمله متأمل فالذى ترجم الكتاب عميد الترجمه إلى العربية، الأستاذ محمد بدران، أمارة استحقاق بل إنه يقول:

(هذا كتاب صغير الحجم عظيم الشأن اجتمع له من- المزايا ما لم يجتمع لغيره من الكتب، فقد إحتوى مادة علمية موفوره صيغت فى قصة ممتعة جذابة، وكتبه عالم وأديب ونزيل مستشفى للأمراض العقلية، وصف فيه تجاربه الخاصة: نشأته وبيته، وأبويه وأسرته، والبيئة المحيطة به، وحياته العملية والزوجية، وصفا صادقا صريحا لم يخف عن القارئ منه شيئا.. وذكر كيف اختلت موازينه موازين عقله حتى أدت به آخر الأمر إلى دخول المستشفى، وما كان يلقاه فيه من معاملة طيبة وغير طيبة، وكيف كان ينظر الناس إليه من بعد شفائه. وقد كتب هذا كله فى لغة سلسة جذابة لايسع القارئ معها أن يضع الكتاب من يده قبل أن يفرغ من قراءته.. وقد اتخذ الكاتب تجاربه سندا قويا فى دعوته إلى إصلاح مستشفيات الأمراض العقلية وتغيير نظرة الناس إلى نزلائها وخريجيها... وكانت حملته على هذه المستشفيات بداية ثورة عنيفة على نظامها فى أوروبا ودعوة حارة لإصلاحها) .

وقد ضمن المؤلف هذا الكتاب كثيرا من العيوب الاجتماعية التى لاتمت بصلة إلى مستشفيات الأمراض ولكنها تؤدى إليها.

ومن العجب أن الكتاب، فيه تفكير عميق فى الكون وخالقه، وفى نعم الله على الخلق، وفى الفضائل ماهى، وفى المتع العقلية والنفسية وما إليها..

يقول الأستاذ محمد بدران (إن هذا الكتاب الموجز جمع بين دفتيه ما لم تجمعه الكتب المطولة).

عجيب الإنسان وعجيب غريب العقل الإنسانى.

لقد كانت المخترعات العلمية كما تقول فيرا برتين Vera Brttain فى التهميد للكتاب، فى المائة والخمسين سنة الأخيرة متصدرة فى معظمها على ميدان المادة، وفى الثلاثين سنة الماضية اتجهت البحوث القومية تؤيدها الموارد القومية اتجاها قويا متزايدا نحو التدمير. لقد سيطر الإنسان على الزمان والمكان، وسخر هذا الإنسان مثير الحروب الأمواج لخدمته، وكشف فى أثناء بحوثه الأخيرة لإيجاد وسيلة يهلك بها أعداءه عن اسرار العالم المادى، ولما اهتدى إلى تحطيم الذرة، هدد الجنس البشرى بهلاك من صنع يده... مع هذا فإن العقل الذى كشف من هذا كله واستغله لايزال مجهولا بالقياس إلى غيره... وذلك أن عقل الإنسان ذا النزعة الشيطانية الخبيثة لايزال غير خاضع لدوافعه الأخلاقية التى لم يكمل نماؤها بعد، ولذلك تراه يتقلب كما يشاء له هواه بين قوى مهولة كمثل الطفل يترك ليلعب بالمواد الشديدة الانفجار. ولسنا نعرف كنه خبثه، ولانستطيع أن نحلل البواعث التى تدفعه فى كثير من الأحيان لأن يتعمد اختيار طريق الشررغم علمه بطريق الخير.. وإلى أن نفهم كنه خبثه، نحلل البواعث الى تدفعه فى طريق الشر، ونسطر عليها، سنظل نحن والعالم الذى نعيش فيه تحت رحمة تلك القوة المخربة العمياء التى يسميها ولفرد Willfred Tratte فى كتابه «غرائز القطيع فى السلم والحرب»: الغريزة الموجهة نحو الموت.

الكتاب إذا استوعبه إنسان العصر، قوة دافعه إلى تفهم العقل على حقيقته حتى نستطيع ترشيد الغرائز التى تلقى بنا إلى التهلكه لعلنا نتدارك عالمنا الذى يقف على شفا الهاوية حتى لاتدك أركانه القنابل الذرية.

كثيرون يمرون على مستشفيات الأمراض العقلية على أنها قذى للعين يتزاورون عنه كأهل الكهف ذات اليمين وذات الشمال فالأمراض العقلية من طبيعتها أن تثير العداء لأصحابها فى نفوس من لايفهمونها على حقيقتها بينما ينظر إليها المؤلف من زاوية تجربته كمعامل للبحوث العقلية من ناحية القيمة البشرية، ومن ناحية إنقاذ العلم من خضوعه المذل إلى الجنون الأخلاقى.

المؤلف نفسه وليس الكتاب وحده، موضوع للتأمل والعبرة والقدرة.. قدرة الضعف أو الضعف القادر وهى قوة من لون غريب.. إن جون فسنت واحد من مرضى العقول الذين أوتوا

من الشجاعة وقوة الخلق مااستطاعوا بهما أن يثنوا حربا شعواء على ماقاسوا من مصائب وآلام، وكانت لهم فوق ذلك قدرة كبيرة على تدوين تجاربهم ليفيد منها الباحثون.. فهو لا يكتفى بأن يصف مايعانيه من مَرْضَى العقول من نقص فى العلاج، بل كان فى مقدوره فوق ذلك أن يتتبع سير مرض الجنون الساكت الذى أدى إلى انهياره العقلى، وأن يحلله تحليلا وهو يصفه بمقدره وصراحة قل أن يكون لهما نظير، الصعاب العقلية والمؤثرات المزعجة التى شكلت طفولة رجل كان من بداية حياته ينساق انسياقا لاخفاء فيه نحو مرضه العصبى.

ومن الطريف قول المؤلف (ومن الصعاب التى لابد من مواجهتها حين توجه التهم إلى مستشفيات الأمراض العقلية أن وجود شخص فى هذا المكان يكفى وحده لإسقاط شهادته؛ وهذا عدل إلى حد ما، ففى مستشفيات الأمراض العقلية من الرجال والنساء ذوى العقول غير المتزنة أكثر مما فى غيرها من الأمكنه- ورجاؤنا أن يكون هذا هو الواقع- ولكن أنى لنا أن نعرف واثقين أى التهم التى توجه إليها أيها صادق وأيها كاذب!) .

ومن طرائفه حين أُخذ عليه، معارضته للحرب العالمية الثانية، قوله: (لقد كان لى أعداء كثيرون بالقرب منى ولكن الدولة لاتجيز لى قتلهم، فكيف أحل لنفسى قتل أناس لم أرهم قط فى حياتى... وتشويه نساء وأطفال لايرغبون إلا فى أن يمشوا مسالمين فى حقولهم الخضراء كما أرغب أنا نفسى. وكنت قد قرأت من قبل ما قاله الجنود العظماء عن الحرب، فتبينت أنهم بلا استثناء يرون أنه عبث لانفع فيه. فنابليون مثلا يقول «إن الحرب لاتحسم أمرا، وإنها تشيع الإضطراب والقلقلة فى كل شئ»، وعنها يقول أدلف هتلر: «لايمكن أن يكون فى الحرب الحديثة منتصران، وإن أمكن أن يكون فيها مغلوبان» ويقول سير وليم روبرتسن: «إن الحرب لاتحقق قط الغرض الذى أثيرت من أجله». وقال ايرل هيج Earl Haig: «إن واجب الكنائس هو أن تجعل عملى مستحيلا» ولقد كانت ظروف هؤلاء كلهم تجعلهم أصدق حكما على الحرب منى، فاتخذتهم قدوه لى ودونت اسمى فى سجل المعارضين للحرب بوحى ضمائرهم) .

وهذا الذى لقى الهوان من الناس، البعيد والقريب حتى ليقول: «كانت كلمة نابية، أو فعلة مهينة، من طفل أو شخص كبير، من غير أن أفعل ما أستحق من أجله هذه الإهانة، تثير فىّ أحيانا غضبا لا استطيع أن أصفه إلا بقول إنه غضب قاتل.. ذلك أنى لا أريد إلا أن أكون على وفاق مع

الناس جميعا، ولكن الألم الذى كنت أقاسيه من استهزاء أو سخرية يصدران من أى إنسان ولو كان طفلا صغيرا يثير فى مخيلتى صورة واضحة من العنف، وكم من مرة هممت أن ألقى بنفسى وأنا فى شدة الغضب على شخص من بنى جنسى، ولم يمنعنى أن أفعل هذا إلا مابذلته من جهد شديد لضبط مشاعرى. وإنى لأعرف كيف ترتكب جرائم العنف؛ ولقد كنت إذا قرأت فى إحدى الصحف عن جريمة، ربما كانت جريمة قتل، لا أستطيع أن أمنع نفسى من القول: «لولا لطف الله بى لكنت أنا الذى ارتكب هذه الجريمة» ألا نعرف حين نتحدث عن القتلة وعن ضحاياهم أن القاتل نفسه قد يكون ضحية، ضحية قوى خفية لانراها، ولكنها رغم خفائها لاتقل قوة أو أثرا عن السلاح الفتاك الذى نمسكه بأيدينا؟ ونحن حين نبعث برجل إلى المشنقة «نشيعه بقولنا: «تلك آخرته» ولكننا ننسى أننا إستأصلنا أعراض الداء وأبقينا الداء نفسه ولا نعرف أننا قد عجزنا عن القيام بأى عمل إذا ما أبقينا على شخص واحد توسوس له نفسه بأن يقتل » .

أقول فلسفة حياة أو أسلوب تفكير ما أحوج العقلاء من الحكام، إليها..

ابحثوا عن أسباب الجريمة قبل محاكمتها بل قبل وقوعها حتى لاتقع أصلا... إن الطغاة هم صناع الجريمة قبل ضحاياها، جناة ومجنيا عليهم، على السواء أعود إلى المؤلف... هذا الذى لقى الهوان من الناس جميعا حتى الأم منبع الحنان وحتى الأب أمل البنين ومثلهم الأعلى.. ومع هذا كان بعد العذاب ورغم العذاب، يتعاطف مع الناس، ولنستمع إليه فى عمق وهو يقول:

(أخذت أزداد اهتماما بآراء الناس، آرائهم فىّ وفى غيرى، وشاهد ذلك، أنى كنت أقف فى يوم من الأيام بجوار مزارع متورد الوجه فى حجرة مكتبه، ففتح رسالة دورية تدعوه إلى التبرع لأطفال أوروبا الجياع. وارتسمت فى مخيلتى صورة هؤلاء الأطفال وصاحبها الادراكى معنى الجوع، فأحدث فىّ ألما مريراً لم يكن ألما نفسيا فحسب بل يكاد يكون ألما جثمانيا أيضا؛ ولكن المزارع أخذ يهزا وهو غاضب «برسائل التسول» وألقى بالرسالة على الأرض. وأنا أحس أحساسا قويا بقسوة العبارات التى أسمعها فى الشوارع وفى حوانيت الحلاقة، وبما تسببه من آلام تقص مضجعى كقولهم:«إن فلانا هذا يستحق الشنق» أو «إن الألمان يجب أن يموتوا جوعا» أو لماذا نهتم بما يحدث للزنوج؟» ولا أكاد أسمع أو اطيق الأسماء التى يطلقها الناس على الشعوب الأخرى «كالهوام» و«البرابرة» ونحوهما) .

لم يدرك الزمن الذى يسمى فيه محدثو النعمة، شعوب الحضارة القديمة العالم الثالث ليستأثروا، هم، بلقب العالم الأول.

ومن العجب العجاب أن هذا الإنسان يتسم قوله بالحكمة فى مواضع كثيرة من الكتاب كقوله: أنا أحاول الآن أن أشكل فلسفتى فى الحياة لكى تتفق مع الظروف التى وجدت نفسى فيها؛ ذلك أننا إذا لم يكن فى مقدورنا أن نفعل ما نحب، وجب علينا أن نحب مانفعل، ولقد تبينت أن الفرار من أية صعوبة هو أقرب طريق للالتقاء بها مرة أخرى فى صورة أصعب وأشد ضررا مما كانت من قبل.

ويقول: من الأشياء التى تؤلمنى فى كثير من الأوقات أن أقرب الناس لى لايفهمونى حق الفهم... ولقد ظللت طول حياتى شديد الحنين إلى من يفهمنى.. لم أشعر بتلك الصلات الروحية العميقة التى تجعل للحياة قيمة إلا فى أندر الحالات... وأنا فوق هذا على الدوام فى معزل عن الناس من الناحية العقلية لأنى كما يبدو لى قلما أعثر على من ينظرون إلى الحياة بالعين التى أنظر بها إليها، ذلك بأن ذوى العقول تنقصهم سرعة الفهم وحدة الذكاء فى بعض الأحيان، وبأن الحالمين ذوى الخيال تنقصهم الحكمة العملية أحيانا، والاخصائيين يجهلون كل موضوع عدا موضوعهم الذى تخصصوا فيه؛ ومهما يكن من أمر فإنى لم اتبين قط إلى أى صنف من هؤلاء أنتمى.

كم هى شجيه هذه العبارة.

ثم يهدأ هذا الإنسان المبتلى ويجد فى نفسه من التواؤم والرضا، حدا يقول معه:

ومع هذا فلقد صادفت الشئ «لكثير مما أحمد الله عليه؛ إنى ليسعنى أن أحمد الله مخلصا لأنه خلقنى، وحفظنى، ووهبنى كل ما فى هذه الحياة من نعم... فأنا أفعل ما فعله ربنسن كروزو Robinson Crosoe عندما أحسب خسائرى وأرباحى؛ فأماما خسرته فهو كثير... لقد ضاع جزء كبير من حياتى وهذا الذى ضاع جزء كبير من حياتى... وهذا الذى ضاع لن يعود، ولكن أرباحى أيضا كبيرة!! فأنا أحب الملذات المادية البسيطة ومنها الوظائف الجسمية العادية كالأكل، والشرب، والاستحمام، والتبرز، وأنا أشعر بمتعة دائمة حين أجد الدفء، والضوء، والطعام، والراحة، وإن كانت هذه كلها بقدر يسير كذلك لم أعدم فى يوم من الأيام مواساة الصحاب، فلقد لقيت طوال

أيام محنتى سندا كبيرا من الرجال والنساء على السواء. «ولقد أوجدت لنفسى أعداء، غير أن وجود هؤلاء الأعداء لم يكن عبثا عديم النفع، لأننى حين أوجدتهم كشفت بهم عن وفاء أصدقائى لى... ويبدو لى أننى كان لى دائما بطريقة ما بعض الأثر فى كل من لقيتهم من الأصدقاء، وأنى لم أكن فى يوم ما من سقط المتاع، فقد بعثت فى زملائى الذين يثقون معى طريق الحياة روح الصداقة أو العداء!.. طريفه

يحمد الله على كل شئ حتى على الأعداء.

ويمضى فى لحظة النقاء فيتساءل: «ما هو الحق»؟ فالشاهد الذى يطلب إليه أن يقول الحق، كل الحق، ولاشئ غير الحق، يجد أمامه ثغرة واسعة ينفذ منها ويهرب من هذا الذى فرض عليه، لأن من أكبر مزايا الحق المطلق أنه يستطاع استخدامه لإيجاد أثر خاطئ... والأمانه ما هى؟ هل هى فضيلة يتصف بها البزاز الذى يبيعك قماشه بأكثر مما يحق له، أن يبيعه، ولايتصف بها اللص الذى يسرق لأن أطفاله جياع؟ وما هو الاعتدال؟.. الخ.

***

وبعد فهذا الذى فقد عقله سنوات من العمر، يحمد الله على ما بقى له.. كما رأينا.

كم نحن مدينون لك بالشكر يا إلهى على نعم كثيرة أكبرها وأغلاها وأثمنها العقل.

سألنى الطبيب الكبير الدكتور عبدالعزيز سامى عميد كلية الطب الأسبق بجامعة القاهرة وهو صديق وجار ما أغلى شئ فى الإنسان؟ فقلت على الفور: العين لأنى أعشق العيون ولغاها ولغتها ورؤاها وعفوية تعبيرها وصدقها...

ولكنه قال: لا.

وتذكرت «الذكاء» أثمن الثمين فقال. لا.

ثم قال فى هدوء العالم المجرب:

أغلى شئ العقل وسلمت فورا بما قال لاسيما أنى كنت قد اقتربت من الإجابه فالذكاء الخّير أحمد صفات العقل.

وتأملت مليا ثم قلت. حقا فهناك من فقدوا البصر ثم أناروا الطريق للمبصرين ثم إن البصيرة أغلى من البصر... ألم يفرق القرآن الكريم بين البصر والبصيرة؟ (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها) ١٧٩ ك الأعراف ٧.

وفقد بيتهوفن، السمع، ثم ظل بيتهوفن الذى ألف وعزف أروع ألحانه بعد المحنة.

وفقدت هيلين كيلر، البصر والسمع والكلام ثـم استعلت على المحنة المكثفة بالصبر الدءوب والأمل الآمل وصارت علما على التحدى البنَّاء.

وراء هذه النماذج المضيئة، إثنان: الإيمان... والعقل.